

التفسير المختصر - سورة يوسف (١٢) - الدرس (٣٠-٤٢) : تفسير الآية ٦ التأويل .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-١٠-٢٩

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزردنَا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسمعون القول فيتبعون أحسنها وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الأخوة الكرام، ففي الآية السادسة الكريمة من سورة يوسف وهي قوله تعالى:  
﴿وَكَذَذِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أَلْ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبْوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦)

(سورة يوسف)

نَفِقُ في هذه الآية عند كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَيُعَلِّمُكَ من تأويل الأحاديث، إذ هناك من يفهم النص فهماً يُهَلِّكُهُ، وهناك آخر يفهم النص فهماً يُسَعِّدُهُ فالحديث شيء، وتأويله شيء آخر، مثلاً لو أنك فهمت قوله تعالى:

﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاها﴾ (٧) ﴿فَلَلَّهِمَّ هَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨)

[سورة الشمس]

إذا فهمت أن الله يلهم العبد الفجور، ويُجْبِرُهُ عليه فأنت هنا وقعت في شر عقيدة؛ عقيدة الجبر، وعزَّزَت إلى الله تعالى كل الأخطاء وتقول: هكذا يُحِبُّ الله !! يشرب الخمر ويقطع الرحم، ثم يقول لك: هكذا يُحِبُّ الله !! إذا فهمت هذه الآية على أنها جبر هلكت وأهلكت، أما إذا فهمت هذه الآية على أنها الفطرة فالنفس إذا فجرت تعلم أنها فجرت من دون أن يعلمه أحد، فالله ألهمها أنها فجرت؛ الكآبة، والشعور بالذنب، والنقص، ومُركب النقص، وهذه المشاعر الداخلية هي دليل الفطرة السليمة، وهي أن الإنسان إذا انحرف عن مبادئ فطرته عذبه، فشنان بين أن نفهم الآية على أن الله تعالى أجبرك على الفجور، وبين أن الله تعالى فطرك فطرة عالية؛ إذا فجرت تتالم، فالله تعالى خلقك ومنحك، وخيرك، وفضلًا عن كل ذلك فطرتك فطرة عالية، بحيث لو أنك انحرفت عن مبادئ الحق عذبت فطرتك، فالنَّصْ شيء، وتأويله شيء آخر.

مثلاً آخر، قال تعالى:

﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَمَا تَذَهَّبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨)

(سورة فاطر)

يقول لك: أصلّه الله ! بحسب الظاهر أنّ الله تعالى هو المُضلّ، فالله خلق الكون ليهدينا إليه فكيف يضلّنا عن ذاته ؟ مستحيل وهذا لا يقبله العقل، لكن هذه الآية تُفسِّرُها أنه إذا عزّى الإضلال إلى الله عز وجل فهو الإضلال الجزائي المبنّى على إضلال اختياري ! قال تعالى:

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُوَّبْهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٥)

[سورة الصاف]

فلو أن طالباً كان مُنتمياً إلى الجامعة، ولم يُقدم الفحص وما داوم فأذروه أول مرّة وثاني مرّة وثالث مرّة، حينها صدر قرار فيه على ترقيم قيده، وإلغاء اسمه من الجامعة، هذا القرار تجسيّد لرغبة الطالب، وعلى هذا إذا عزّى الإضلال إلى الله عز وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، لذا لو اعتقدت أن الضلال من الله تعالى، فقد وقعت في شرّ عقيدة، وهي عقيدة سوء الظنّ بالله عز وجل.

مثل ثالث، قال تعالى:

﴿أَفَمَ يَبْيَسُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهُدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحْلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٣١)

[سورة الرعد]

ظاهر الآية يُشكّل علينا، ولكن المعنى ليس كذلك، فلو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُلغى اختياركم وتَكْلِيفكم، والأمانة التي حملتموها وطبيعة العلاقة التي بينكم وبينه، وأراد أن يُجبركم على شيء ما لأجبركم على الهدى، لو شاء الله أن يُلغى اختياركم لأجبركم على الهدى، فلو أراد مثلًا رئيس الجامعة أن يُنجح الطلاب لكان القصيّة سهلةً جدًا، يُوزع أسئلة مع الأجبّة، وما للطالب إلا أن يكتب اسمه ! فهل لهذا الهدى قيمة ؟! هذا هدى الإجبار، الله تعالى شاء لك أن تسعَ في جنته إلى أبد الأبدية، لذلك أعطاكم حرية الاختيار، ومنحك الشهوات لتترقى بها صابرًا أو شاكراً إلى رب الأرض والسموات.

وقال تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَمَّا أَنْجَمْنَا جَهَنَّمَ مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣)

(سورة السجدة)

شيء عظيم جدًا أن يعلّمك الله تعالى تأويل الأحاديث، فالمؤمن ولو سرق وزنى يدخل الجنة، لأنّ الإسلام يجُب ما قبله.

لذا أيها الأخوة الكرام، يمكن أن تفهم نصًا يُنافي، أحدّهم قرأ شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي، فأصبح يقول: بادر إلى الكبائر من أجل أن تقال شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام.

وذكر البخاري في صحيحه:

((عَنْ أَبِي أَيُوبَ أَنَّهُ قَالَ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاءُ كُنْتُ كَنْتُ عَنْكُمْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَوْلَا أَنْكُمْ تُذَنِّبُونَ لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذَنِّبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ ))

[رواه مسلم]

فهل المعنى أن نذنب؟! الإنسان إذا أذنب ولم يشعر بشيء، فهذا ميت لذا معنى لو لا تذنبون أي لو لم تشعروا بذنبكم، اغتاب وافتري ونم ثم نام وهو مرتاح، فعلامة الإيمان أن يرى المؤمن الذنب كالجبل وعلامة النفاق يرى الذنب كذبابة؟!

أخطر شيء أن تقهم النص لوحديك، ومن دون معلم، وفهمًا على هواك، يقول لك: قال تعالى:  
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠)

[سورة آل عمران]

فأنا أكل الربا خمسة بالمائة !! علماء الأصول قالوا: هذا قيد وصفي وليس احترازي، أي لا تأكلوا الربا الذي من خصائصه أنه أضعافاً مضاعفة.  
 وقال تعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَّاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنَّ أَرَدْنَ تَحَصَّنَا لِتَبَتَّغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهَ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣٣)

[سورة النور]

طيب إن لم يردك تحصناً، فهل تكرهها على البغاء؟ النصوص القرآنية لحكمة أرادها الله تعالى جعلها في معظمها قطعية الدلالة وجعل بعضها ظنية الدلالة، فلو قلت لواحد: اعطيوني ألف درهم ونصفه ! على ما تعود الهاه؟! على الدرهم أم على الألف؟! فلو قال لك: على الدرهم هنا تكون قد امتحنت بخله وكرمته دون أن يشعر لأنك جئت بصيغة ظنية.

فألا ترى يمتحننا، ويأتي بنص ظني الدلالة، وكل إنسان يدلي بدلوه فإذا الواحد كان متحرفاً فهم النص متحرفاً، قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَمَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَبَعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَا بِهِ كُلُّ مَنْ عَنْ دِرَبِنَا وَمَا يَذَكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٧)

[سورة آل عمران]

درسنا اليوم تأويل النصوص، فالواحد لا حق له إن كان النص في ظاهره يبدو خلاف المأثور والمعقول، وخلاف رحمة الله تعالى وعدالته وحرصه على هدانا، يتوجّب عليك أن تسأل أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، من قبل أن يخلقك الله كتاب عليك ما ستقطعه شيئاً شئت أم أبيت؟!! فالله تعالى ما قال هذا ؛ قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَا فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (١٢)

[سورة يس]

كلام جميل جداً ؛ نكتب فعل ماضٍ، وبعد أن فعلت الشيء وأصررت عليه، ولا استغفرت ولا ندمت، حينها يسجل عليك فالتسجيل بعد الفعل، وليس قبل أن تخلق، عقيدة الجبر عقيدة فاسدة قال تعالى:

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آباؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بِأَسْنَا قُلْ هُنْ عِنْدُكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (١٤٨)

[سورة الأنعام]

هذه عقيدة الشرك.

فَرَسَنَا الْيَوْمَ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَكَذَّاكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أَلٰلٰ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبْوَيْكَ مِنْ قَبْلٍ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنْ رَبُّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦)

[سورة يوسف]

فالآحاديث شيء، وتؤول لها شيء آخر، وكل على حسب ظنه ومعرفته بالله تعالى، فلو أن أحداً أحضر لهذا المسجد كل شيء، ثم مد يده إلى أحد الألبسة الموضوعة وأخذ عشر ليارات، هل تقول سرافق؟ لقد أنفق مائة ألف، فهل يعقل أن يدل نفسة على عشر ليارات؟ فالإنسان يؤول بحسب حسنه ظنه، لذا من عرف الله تعالى أول الآيات بحسب معرفته بالله تعالى، ولا تقل كان النبي عليه الصلاة والسلام ماشي بالطريق ورأى باباً نفتوحاً، وفيه امرأة تعانس عارية، وجميلة جداً، فلفت نظره، فقال: سبحان الله! فطلقتها الله من زوجها وأخذها محمد!!! هذه ليس أخلاق نبوة، هذه أخلاق أشخاص يتعلمون بالنساء، وهذه القصة باطلة ولا أساس لها، وهي من فعل الزنادقة، فأنت إذا عرفت مقام النبوة كان لك أن تفسر الأحاديث، فتأويل الأحاديث تستقيمة معرفة بالله ورسوله، وحقيقة الإيمان.

والحمد لله رب العالمين